الفصل الخامس
الأوائل والأواخـر

هذا بحث في تاريخ القرآن يعتمد على مرويات متعددة مختلفة في شأن أول ما نزل وآخر ما نزل ، وفيه فائدة تفاعل المجتمع مع النص ، لا مواءمة النص القرآني لخدمة المجتمع كما يرى بعض المتنصلين ، وذلك لأنه مجموع في اللوح المحفوظ قبل كونه منجّماً .

أ ـ أول ما نزل : ذكرت في هذا المضمار آراء مختلفة ، متفاوتة السند .

١ ـ العلق :

تجمع المصادر القديمة والمعاصرة على أن أصح ما قيل هو نزول صدر سورة العلق : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ـ٥] .

والملحوظ أنها دعوة مباركة إلى العلم الذي ذكر في هذه الكلمات القليلة ست مرات مع وسيلتيه المنشئتين للحضارة ، القراءة والكتابة ، ولذلك يحق للمسلمين أن يُدعوا « أمة اقرأ » وهي قراءة في الكتاب المسطور والكتاب المعمور .

٢ ـ المدثر :

فقد ورد عن جابر بن عبد الله وأبي سلمة رضي الله عنهم وكوكبة من العلماء كما يذكر ابن عطية[١] .

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ص/١٦ .

قال أبو سلمة : « سألت جابراً أيّ القرآن نزل أول ؟ فقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ، فقلت : إنهم يزعمون أن أول ما نزل من القرآن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فقال جابر : سألت رسول الله ﷺ : أي القرآن نزل أولاً ؟ فقال : كنت أهبط من حراء فسمعتُ صوتاً ، فنظرت أمامي فلم أر شيئاً ، فالتفت ورائي فلم أر شيئاً ، ونظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي ، فرأيت الملك ، فأتيتُ خديجة ، فقلت : دثروني دثروني ، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ، فكان أول القرآن نزولاً »[1] .

إن أصل الحديث عند البخاري ، فلا ينازعه نص آخر ، مع أن هذه الرواية تخالف رأي الجمهور بنزول سورة العلق ، والجمع بين القولين أن (ياأيها المدثر) نزلت بعد فترة الوحي فهي الأولى بعد الانقطاع لا على سبيل الإطلاق .

يؤكد هذا ما رواه البخاري نفسه عن جابر رضي الله عنه : سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : « فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني في حراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فجئت أهلي ، فقلت : زمّلوني زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[2] » .

وكان هذا قبل أن تفرض الصلاة ، فهذه أولية مقيدة بأنها بعد انقطاع الوحي لا مطلقة ، إذ دلّ النص الأخير على أنه كان قد لقي الملك سابقاً .

---

(١) مقدمتان ، ص/ ٤٢ وأصل الحديث عند البخاري ، التفسير (٤٦٤٠) ، ومسلم ، الإيمان (١٦١) وأحمد ح (١٤٣٢٦) ، وابن حبان كتاب الوحي ، ح (٣٤) ، والنسائي ، التفسيرح (١٣٦٣١) .

(٢) البخاري ، التفسير ، ح (٤٦٤١) وراجع تفسير ابن كثير : ٧٢٦/٤ لمزيد من الأسانيد .

إذن فالرواية الأولى لجابر فيها اجتهاد بحسب فهمه لمعنى أول ما نزل فأورده على الإطلاق ، ولا يقابل الاجتهادُ إجماع الجمهور المستند إلى رواية .

ولعل مبدأ الاستشكال رواية عائشة رضي الله عنها : « إن أول ما نزل سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام »[1] .

فقال الإمام السيوطي : « وقد استشكل هذا بأن أول ما نزل (اقرأ) ، وليس فيه ذكر الجنة والنار ، وأجيب بأن (من) مقدرة ، أي : من أول ما نزل ، والمراد سورة المدثر ، فإنه أول ما نزل بعد فترة الوحي ، وفي آخرها ذكر الجنة والنار ، فلعلّ آخرها قبل نزول بقية (اقرأ) »[2] .

وهذا الاستدلال ضعيف لأن كلمة « سورة » الواردة في النص وفي رواية أخرى بالجمع « سور » هي اسم جنس لكل سورة فتعني الجمع ، ولم يثبت أن بقية المدثر نزلت قبل بقية العلق ، ثم إن السيوطي ينقل بعد هذا أن المدثر أول سورة نزلت بكمالها قبل تمام سورة العلق التي ثبت نزول صدرها فقط .

وهذا غير مسلَّم به لما ثبت في الصحيحين عن جابر أن الذي نزل من السورة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر : ١ـ٥] فقط أي صدرها .

ولهذا استبعد الرأي الحافظ ابن حجر ببراعته لدى توفيقه بين الحديثين

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح(٤٧٠٧) ، والنسائي ، فضائل القرآن ، ح (٧٩٨٧) .

(٢) الإتقان : ١/ ٣٤ .

حديث عائشة وحديث جابر[1] ، إذ كانت تقول : « أول سورة نزلت من القرآن (اقرأ)[2] » ، ومرادها بالسورة صدرها فقط ، إذ ثبت في الصحيحين أن البقية نزلت فيما بعد .

وذكر بعضهم أن (ياأيها المدثر) تمثل الرسالة ، فهي أول ما نزل للرسالة ، أما (اقرأ) فتمثل النبوة ، فكانت أول ما نزل للنبوة دالاً عليها ، وذلك أن الرسالة وحي إلى الشخص على لسان الملك بتكليف عام[3] .

ونقول : العلق خطاب خاص والمدثر خطاب عام ، وهذا استكناه يصنف إلى جانب أن المدثر أول ما نزل بسبب ، بخلاف اقرأ فهي أول ما نزل بغير سبب كما يرى الحافظ ابن حجر[4] . فهذا اعتبار آخر وأولية مقيدة لا مطلقة .

٣ـ الفاتحة :

ولعل هذا ناتج من كثرة ورودها في العبادات وما ذكر عن تعدد نزولها ، وأنها أم الكتاب ، ولكن نذكر الرواية :

روى عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : إني خلوت وحدي ، فسمعت نداءً ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً ، فقالت : معاذ الله ما كان ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه ، وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة ، فانطلقا فقصا عليه ، فقال : إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداءً خلفي : يا محمد يا محمد ،

---

(١) فتح الباري : ٨/ ٥٥٠ .
(٢) المستدرك : ح (٩٥٣) وابن حبان ، ح (٣٤) .
(٣) مباحث في علوم القرآن ، مناع قطان ، ص/ ٦٨ .
(٤) فتح الباري : ٨/ ٥٥٣ ، والإتقان : ١/ ٣٦ .

فأنطلق هارباً في الأفق ، فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني ، فلما خلا ناداه يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين . . . ولا الضالين »[1] .

والذي يُريبك أن الواحدي صاحب أسباب النزول يقول عن الفاتحة : « فعند الأكثرين هي مكية ، من أوائل ما نزل من القرآن » ، ثم يسرد هذه الرواية التي تشتمل على لقاء بورقة ، وكأنه أول وحي ، والمريبك ألا يناقش محقق الكتاب هذه المسلّمات .

الحديث مرسل غاب منه اسم الصحابي فابن شرحبيل تابعي ، فهو حديث ضعيف ، مع كون رجاله ثقات ، ولا يعارض ولا يدفع حديث عائشة المرفوع ، وليس هذا المرجوح ما عليه أكثر المفسرين كما يزعم الزمخشري[2] .

وليس في الحديث تنصيص واضح على أن الفاتحة أول ما نزل ، فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد (اقرأ) و(المدثر) ، فهي من الأوائل كما ذهب البيهقي لا الأولى ، وقالوا : يفهم من النص الأخير ما كان في فجر النبوة بعدما حدث في حراء ، أي بعد ذهابه إلى ورقة .

ولكن لا جدوى عندي أن يتكرر النداء من غير أن يقرأ عليه شيئاً ، ثم لم يجر أن نادى جبريل من غير وحي ، كما أنه لا يعجزه أن يلحق به إلى الآفاق فهو ملك ذو قدرة خارقة .

والأهم من هذا تناقض في الرواية ، إذ بدأت بأن النداء حدث مرة واحدة ، ثم بدا النداء متكرراً عندما أخبر به ورقة .

---

(١) أسباب النزول للواحدي ، ص/ ١٧ .

(٢) الكشاف : ١/ ١٥ . وراجع تفنيد ابن حجر له في فتح الباري : ٨/ ٥٥٩ . وتفنيد محمد عبده في المنار : ١/ ٢٥ .

وإذا كان اللقاء بعدما حدث في حراء ، فلماذا يستعين بورقة وهو يعرف أنه مخاطب بالوحي سابقاً ؟ بل الممكن والمعقول أن يقول له أبو بكر رضي الله عنه وقد أسلم : إنه الوحي ولن نذهب إلى ورقة .

وإذا كنا لم نجد في النص السابق تنصيصاً على إطلاق أولوية الفاتحة ، فنحن واجدوه في حديث علي رضي الله عنه : « سألت النبي ﷺ عن ثواب القرآن ، فأخبرني بثواب كل سورة على نحو ما أنزلت من السماء ، وبأن أول ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثم (اقرأ باسم ربك) »[1] ، أي ثمة تسلسل يوضح الأولوية المطلقة لا بعد فتور الوحي خاصة .

ولكن لماذا لم يخبرنا الإمام علي رضي الله عنه عن الثواب ؟ وما جدوى أن يكون بحسب أول النزول فأول ؟ ولعل هذا يعضد دعوى جمع علي للمصحف بحسب النزول ، إلا إذا ارتأينا أن يكون قد سئل عن أول ما نزل فقال ما قال بصدد ثواب قراءة القرآن .

٤ـ البسملة :

وقد اختلف العلماء في كونها آية في أول السورة ، والأرجح أنها آية ، وأنها آية بلا خلاف في سورة النمل ، واستند القائلون بهذا الرأي ـ ولا نظنهم كثرة ـ إلى ما ورد عن عكرمة والحسن رضي الله عنهما ، قال : « أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) ، وأول سورة (اقرأ باسم ربك) »[2] .

لكن الواحدي يذكر مباشرة سنداً آخر يؤكد أن (اقرأ) من غير بسملة

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ، ص/ ١٣ـ ١٤ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ، ص/ ١٠ .

أول ما نزل ، وهذا ديدن الجمع في الثقافة التجميعية ، إذ أخرج الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « أول ما نزل به جبريل على النبي ﷺ : يا محمد ، استعذْ ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم »[1] .

ونفى السيوطي هذا قائلاً : « وعندي أن هذا لا يعد قولاً برأسه ، فإن من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها ، فهي أول آية نزلت على الإطلاق »[2] . لكن ما ذكرناه في حديث عائشة وجابر لم يرد فيه نزول البسملة مع العلق ولا مع المدثر ، والظاهر إذن نزول البسملة بعد تمام السورة[3] ، وهذا مفهوم لا منطوق .

إن ما سلف يؤيد العناية الفائقة التي أبداها العلماء في رصد جزئيات تاريخ القرآن ، إذ لا يغير من الواقع الإسلامي أن نخبر أن الرسالة أولاً أم النبوة ، ولكن نرجّح أولوية نزول (اقرأ) على الإطلاق وهو رأي الجمهور .

ب ـ آخر ما نزل :

ثمة إطباق من جمهور العلماء على أن آخر ما نزل وفق الأسانيد الصحيحة قوله عز وجل : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

وهي واقعة بين آيات الربا وآية الدين أطول آية في القرآن ، وهذا دليل على أهمية العنصر الاقتصادي في دوام بقاء الدولة ، فالمال عامل فعال

---

(١) جامع البيان للطبري : ١/ ٥٤ .
(٢) الإتقان ١/ ٣٤ .
(٣) المدخل ، د . أبو شهبة ، ص/ ١١٦ .

في تغيير النفوس والمجتمعات ، فهذا يناسب التحذير العام في الآية الأخيرة .

لقد روى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنه : « آخر ما نزل من القرآن ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ » ورواه الطبري وابن مردويه ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : « آخر ما نزل من القرآن كله : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ليلة الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول »[1] .

ولكن ذكر البخاري وغيره عن ابن عباس نفسه رضي الله عنه : « آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا »[2] ، وقد بوّب في صحيحه باب : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم ساق حديث ابن عباس هذا المذكور .

وكان البخاري يرى أن هذه الآية (واتقوا) التي تلي آيات الربا نزلت معها وهي خاتمة لها ، فمن قال : آيات الربا آخر القرآن نزولاً فهو مصيب ، ومن قال : هذه الآية (واتقوا) فهو مُصيب أيضاً ، لأنها نزلت جملة كترتيبها في المصحف[3] .

هذا ما يذكرونه لكن لم يصح أن آيات الربا تنتهي عند (يُظلمون) ، والآيات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

---

(١) المدخل د . أبو شهبة ، ص/ ١١٨ .

(٢) البخاري في التفسير ، ج (٤٢٧١) ، ومسند أحمد ح (٢٤٦) ، وابن ماجه ، التجارات ، ح(٢٢٧٦) ، الدارمي ، النبي ﷺ ، ح (١٢٩) ، والبيهقي ، البيوع ، ح (١٠٢٥١) .

(٣) مدخل إلى علوم القرآن ، د . فاروق حمادة ، ص/ ٥٢ .

أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٧٨ـ ٢٨١] .

فالواضح إمكان اعتبار الآية الأخيرة ، تذييلاً عاماً لما ورد من إنذار في الآيات الثلاث السابقة مع أنه لم يرد نزول الأربع سبيكة واحدة .

والمعروف أن الربا قد ذكر قبل هذا سبع مرات ، كما في قوله تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران : ١٣٠] وقوله : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم : ٣٩] .

فكلام ابن عباس يعني أن آيات الربا هي الآية التي ختمت بها آيات الربا (واتقوا) ، وتصنيف البخاري مؤيد لما ذكر عنه ، وهو رأي بعض العلماء .

ولكن استدلالهم لا يصمد بإزاء قول ابن عباس : « آخر ما نزل من القرآن : ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا﴾ قال جبريل للنبي ﷺ : ضعها في رأس ثمانين ومئتين من البقرة »[1] .

ومن المستبعد أن نعدّ آخر ما نزل قوله عز وجل : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، لكن المعروف أنها آخر ما نزل في حلال وحرام ، فهي آخرية مقيدة ، فقد عاش بعدها النبي عليه الصلاة والسلام واحداً وثمانين يوماً ، وقد نزلت يوم عرفة من حجة الوداع .

ومع أن الزركشي ممن يكثر الأقوال المتفقة والمتضاربة ، وقد ذكر

---

(١) مقدمتان ، ص/ ٤١ .

عشرة أقوال في آخر ما نزل ، فإنه لم يذكر أن آية المائدة آخر ما نزل ، ولكنه قول يسري في بعض الأوساط الثقافية بنظرة سطحية إلى معنى التمام والكمال ؛ أي إلى كلية الخطاب القرآني فيها ، ولكن من العجب أن يذكرها مؤلف في تاريخ القرآن[1] .

ونذكّر بأن الكمال اسم لاجتماع الأجزاء فهو كلي ، أما التمام فهو اسم للجزء الذي يتم به الموصوف بأنه تام ، فهو جزئي ، ونقول : الجزء الأخير الذي هو تمام النعم ذلك الأمن في الحج وقد سبق بنعم كثيرة ، فالنعم متعددة والدين غير متعدد .

الآخرية المقيدة :

ونعني بها تلك النصوص التي كانت خاتمة لإرشادات في القضية الواحدة ، ونزول نص أخير في جانب معين .

١ـ آية الدين :

وهي آخر ما نزل في فقه المعاملات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . أطول آية في القرآن الكريم ، ولكن قال سعيد بن المسيب (٩٤هـ) التابعي : « إنه بلغه أن آخر القرآن عهداً بالعرش آية الدين » فهي إذن آخرية مطلقة ، وهذا ما ذهب إليه السيوطي سامحه الله ، مع أن الحديث مرسل غير صحيح الإسناد ، ففيه ضعف الإرسال .

قال السيوطي : « ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا وآية : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ وآية الدين ، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة

---

(١) انظر : تاريخ القرآن والتفسير ، ص/ ١٦ .

كترتيبها في المصحف ، ولأنها قصة واحدة ، فأخبر كُلٌّ عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح »[1] .

إن هذا الجمع مرجوح بقول عمر رضي الله عنه عن آية الربا إنها من أواخر الآيات لا آخرها ، وليس في الآيات الثلاث قصة واحدة ، ولنعد لنرى أن الأولى ترك الربا عند المقرض بعد نزول آية التحريم ، والثانية تذكير عام باليوم الآخر ، والثالثة تتعلق بالدين[2] .

٢ـ آية الكلالة :

هي قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ [النساء : ١٧٦] وهي آخر آية في سورة النساء ، والكلالة من لا ولد له ، أو لم يرثه والد ولا ولد كما فسرها الصديق رضي الله عنه ووافقه جمهور الصحابة ، وألمح إليه قبلاً سياق الآية بخلاف قول محمد أركون من أنها تعني الكنّة أي زوجة الابن .

ويمكن أن يقال : آخر آية نزلت في شأن المواريث ، هذا لا يخالف ما ذهب إليه الشيخان من أنها آخر آية[3] .

٣ـ خاتمة براءة :

وهي آخر ما نزل منها لا آخر ما نزل على الإطلاق ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٨ـ١٢٩] .

---

(١) الإتقان : ١/ ٣٧ .

(٢) راجع مدخل ، د . أبو شهبة ، ص/ ١٢٠ .

(٣) البخاري ، الفرائض ، ح (٦٣٦٣) ، ومسلم ، الفرائض ، ح (١٦١٨) ، والترمذي ، التفسير ، (٣٠٤١) ، والنسائي ، التفسير ، ح (١١٢١٢) .

ويبدو أن الاهتمام بها نابع من كونها سورة تتكلم عن المنافقين وأنها من غير بسملة وذكر عن أبيّ رضي الله عنه : « آخر آية نزلت : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ » كما روى ابن مردويه عنه أيضاً أنه قال : « آخر القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان »[1] . ولعل هذا ظن أو اجتهاد .

٤ـ سورة المائدة :

يقال : إنها آخر ما نزل استناداً إلى حديث الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : « آخر سورة نزلت المائدة ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه » ، ولعل المقصود آخر سورة نزلت بقيد الحلال والحرام ، ولم ينسخ فيها شيء كما نجد معنى النسخ في آخر الحديث .

٥ـ سورة النصر :

وهي آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن آخر ما نزل سورة : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[2] » .

وقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال حين نزلت : « نُعيت إليّ نفسي »[3] . وكذلك فهم كبار الصحابة ، إذ ورد أن عمر رضي الله عنه

---

(١) المستدرك للحاكم : ٣٣٨/٢ وتفسير ابن كثير : ٦٥٥/٢ ، والمسند لأحمد ح (٢٥٥٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى ح (١٣٧٥٦) والنسائي ، التفسير ، ح (١١١٣٨) .

(٢) مسلم ، التفسير ، ح (٣٠٢٤) .

(٣) البخاري ، التفسير ، ح (٤٦٨٥) ، والنسائي ، التفسير ، ح (١١٧١٢) والدارمي ، كتاب النبي ﷺ ، ح (٧٩) ، ومسند أحمد ، ح (١٨٧٣) ، ومجمع الزوائد ، علامات النبوة ، والمعجم الكبير ، ح (١١٩٠٣) .

بكى حين سمعها ، وقال : « الكمال دليل الزوال » ، ويحتمل أنها آخر ما نزل من السور لا من الآيات ، يدل على هذا رواية ابن عباس : « إن آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، فكونها آخر سورة نزلت في حجة الوداع لا ينافي نزول آية أو آيات بعدها ، فهي آخرية مقيدة بالجنس .

٦ـ آية آل عمران :

وهي آخر ما ذكر بشأن النساء ، قال عز وجل : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران : ١٩٦] .

وذكرت الرواية أنها نزلت بعد أن سألت أم سلمة رضي الله عنها : يا رسول الله ، لا أسمع ذكر النساء بالهجرة بشيء » ، وذلك أنها نظرت إلى الآية : ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

٧ـ آية القتل :

قال عز وجل : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « نزلت هذه الآية ، هي آخر ما نزل وما نسخها شيء »[١] ، فهي آخرية مقيدة بالنسخ ، وليس كما تبادر إلى ذهن الشيخ طاهر الجزائري ، فعدّ هذا عند البخاري من غريب ما ورد مع أنه لم يقرأ معنى النسخ[٢] .

---

(١) البخاري في التفسير ومسلم والنسائي .

(٢) التبيان ، طاهر الجزائري ، ص/ ٤٧ .

مرد هذه الاختلافات حول الآخرية المطلقة أن كلاً من الصحابة يجيب بما عنده كما يرى البيهقي ، ولكن هذا لا يشفي الغليل ، فقد قال الباقلاني : « هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ ، وكلُّ ما قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه أحد »[1] .

كما أن لقاء الصحابة الكرام بالنبي ﷺ في الأيام الأخيرة من عمره الشريف مختلف ، إذ لا نعرف تماماً أيهم كان لقاؤه آخر لقاء ممن سمعوا ، حيث تباينوا في معرفة آخر ما نزل إلى أقوال بلغ بها بعضهم عشرة[2] .

هذا إذن من منهج الثقافة التجميعية القديمة ، ولا يصح في كتاب معاصر يجمع فيه أحدهم أربعة عشر قولاً[3] في آخر ما نزل من غير مناقشة ولا تبيان لأبعاد بحث الأولوية والآخرية وآفاقه الثقافية .

*** آفاق البحث :**

ليس البحث من الترف الذهني ، لكن الذي نفهمه من عناية القدامى به هو حرصهم الشديد على القرآن ومحبتهم لتفاصيله ، وهذا بعد عاطفي ليس يهمل البعد العقلي الذي يتجلى في معرفة دقائق التشريع الإسلامي وتاريخه ، إذ الأول والأخير يبين الناسخ والمنسوخ ، كما يتجلى في متابعة جزئياته الدالة على صيانته وضبطه ووصوله على مر العصور سالماً

---

(١) الإتقان : ١/ ٢٨ .

(٢) مع نزول القرآن ،د . محمد محمد خليفة عن كتاب في تاريخ القرآن ،د . محمد الدسوقي ، ص/ ٣٣ .

(٣) المنتقى في علوم القرآن ، ص/ ١٠٤ـ١١٦ .

من التحريف والتصحيف والزيادة والنقصان .

فليس من الترف الذهني أن يعرف المسلم أن أول ما نزل في تشريع الجهاد قوله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج : ٣٩-٤١] فيفهم أن التقوى مطلوبة قبل الحرب وبعدها منذ أول حضّ على القتال .

وأن أول ما نزل في تحريم الخمر والميسر قوله عز وجل : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة : ٢١٩] .

وليس في الخمر والميسر نسخ كما يظن بعض الجهلة ، فتحريم الخمر مبطّن في الآية الأولى ثم تدرج فقال : و﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء : ٤٣] فقلّل من حجم شربها إلى أن قال : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة : ٩٠] .

والنفع المقصود في الآية الأولى دنيوي ، ولا نستطيع أن نقول بالهضم وتنشيط الذهن لا مع المفسرين ولا مع الملاحدة ، فالنفع اقتصادي بحت .

وكذلك الأمر بالنسبة للقمار ، إذ ينفق الرابح على نفسه وأهله ، ولكن هذه المصالح لا توازي المفاسد الراجحة ، وذكر الكبر للدلالة على الضرر الحسي لأنه ضد الصغر ، وهذا يناسب حجم المال حال تجمعه .

ويمكن أن نسرد من آفاق البحث هاتيك المعرفة النصية في مجال

التفسير ، إذ تثبت أفكار متسلسلة في الموضوع الواحد مما يدل على فهم عام شامل للموضوع المدروس ، وهذا ما يدعى بالتفسير الموضوعي .

كما أن هذا البحث يفيد في معرفة ترابط القرآن بالسيرة النبوية ، فنجد فاعلية القرآن في النفوس والمجتمعات ، أي نجد الفعل وردّة الفعل ، والنص والتاريخ ، وهذا في صميم الواقعية ، ومما يبرهن على واقعية التشريع الإسلامي .

ولكن أن نفسّر القرآن شيء وأن ندعو إلى كتابته بحسب أول ما نزل شيء آخر ، فالأخير يخلُّ بالإعجاز الترابطي بين السور والآيات ويجلي معصية تجاه الذي رتبه عز وجل متجلياً منذ العصر الإسلامي الأول في ترتيب المصاحف .

* * *